محمد علي باشا

(تابع ما قبلهُ)

كتب المستر باركر في اول يونيو سنة ١٨٣٠ الى القنصل الجنرال لدولتهِ في الاستانة العلية يقول :

قال محمد علي في ديوانهِ بالامس انهُ ينتظر مجيءَ الاسطول العثماني عليهِ لان السلطان طلب منهُ مرافئ مصر الثلاثة. وانهُ هو اي محمد علي غير عازم على تسليم هذه المرافئ بل هو قادر على حمايتها . ولا ادري هل نُقل اليهِ هذا الخبر حقيقة من الاستانة او هو ذكرهُ من عندهِ ليسبر غور رجالهِ لانهُ لم تمضِ الاَّ ايام قليلة منذ جاءهُ فرمان التثبيت من الباب العالي لهُ ولابنهِ

وكتب قبل ذلك في ١٨ مايو يقول :

ان الاستعداد للحرب قائم على ساق وقدم مع ان فرمان التثبيت جاء الى الباشا والى ابنهِ يوم عيد الاضحى في الاسبوع الماضي

وكتب الى امير البحر ملكلم في الثالث من شهر يوليو يقول :

اخبرني الباشا منذ بضعة ايام لن عمق مدخل المرفإ سبع وعشرون قدماً وان اكبر البوارج الحربيَّة لا تحتاج الى اكثر من خمس وعشرين قدماً ولذلك لم يجد صعوبة في ادخال اكبر بوارجهِ الى المرفإ واخراجها منهُ اذا كان البحر رحوًا ثم قال لي : " اني لا اقتنع بشيء ما لم اختبرهُ بنفسي ولا احكم باستحالة شيء ما لم ارَ بالاختبار انهُ غير ممكن ألا ترى ان امير البحر برون الفرنسوي كان يمكنهُ ان يدخل المرفأ بسفنهِ كلها حتى الاوريون ولكن قيل لهُ ان الماء في المدخل غير كاف فصدَّق هذا القول وذهب الى ابي قير فاتلفتم عمارتهُ ". وثق ايها الاميرال ان مقدرة محمد علي تفوق الوصف وقد بنيت حكمي هذا على ما عرفتهُ بنفسي من الاحاديث التي حدثني بها على انفراد . (وكان المستر باكر عارفًا باللغة العربيَّة متقنًا لها)

وكتب اليهِ قبيل ذلك يقول :

لا بدَّ من ان يكون قد بلغك مجيءُ المسيو له بارون دتيلور الى هنا ومعهُ هدايا كثيرة الى الباشا لكي يطلب مسلَّتي لتقصر باسم مدينة باريس وقد سمح لهُ الباشا باخذها ولما اطلعني على ذلك قال لي ولكنني ابقيت مسلَّة الكرنك للانكليز وهي اجمل المسلات كلها

وبقي المسيو له بارون نحو شهرين قبلما اذن لهُ في مقابلة الباشا واخيرًا نال منهُ ما جاء

لاجلهِ وجاءت سفينة الدرومدير منذ شهر وحملها الف طن لكي تنقل احدى المسلتين

وفي السادس والعشرين من الشهر الماضي اتى برتو افندي وزير الخارجية الاسبق فقابلهُ الباشا بالاكرام الواجب لمقامهِ. والغرض من مجيئهِ اقناع الباشا برضى السلطان عنهُ واخذ الجزية وما يعطيهِ اياهُ الباشا هبة "بخشيش". وكان بوغص يكلمني عنهُ بالامس فقال لي انهُ من نوابغ رجال الاستانة

ثم كتب في ٤ سبتمبر يقول: عاد برتو افندي الى الاستانة ومعهُ خمسون الف ريال هبة لهُ وخمس مئة الف ريال للسلطان من اجل ولاية كريت التي انعم بها على الباشا. والباشا يستعدُّ الآن لارسال خمسة آلاف جندي الى كريت وسيتبعها بخمسة آلاف جندي أخرى وانا واثق انهُ يجعل الاروام يلقون سلاحهم من غير حرب ثم يحسن معاملتهم حتى لا يندموا على ما فعلوا

وقد شرع في بناء باربجة اخرى تحملها ١١٠ مدافع وسمَّاها مدينة الاسكندرية وذبحت جاموسة يوم تسميتها على جاري العادة

وكتب في ٧ سبتمبر الى لورد بردو يقول: لقد سرَّ الباشا سروراً عظيماً بولاية كريت وهو يتكلَّم الآن عمَّا ينويهِ لها من الاصلاح فهو عازم ان يقيم فيها المنائر (الفنارات) والترسانات ويزرع الخراج لكي يبني من اشجارها السفن ويتجر بخشبها ومن غرضهِ ان ينشئ مجلساً في الجزيرة يدخل فيهِ شيوخ الاروام ومن كلامهِ لي في هذا الصدد قولهُ "وسترى ان حالهم تكون اصلح في حكمي منها في حكم بلادهم الجديد" والمرجح عندي ان الاخبار يؤيد قولهُ

وكتب الى لورد بردو في اول يوليو سنة ١٨٣٠ يقول: ان الباشا مهتمٌّ جدًّا ليعرف ما آلت اليهِ حملة فرنسا على بلاد الجزائر ويحسب ان الداي سيقاومهم بسالة وعندهُ ان فرنسا لا تستطيع الاستيلاء على الجزائر في اقل من سنة من الزمان

ومنذ ايام قال في ديوانهِ قولاً اهتمَّ لهُ الناس اهتماماً عظيماً وهو "انهُ وردت اليَّ اخبار سرية من الاستانة مفادها ان السلطان عازم على الايقاع بي ولكن الله اكبر وسنرى على من تدور الدائرة". ثم امر ان يؤتى بالف رجل لانشاء طابية امام قصرهِ في راس التين وارسل واستدعى ابرهيم باشا وامرهُ ان يستعرض جنودهُ وبيني الطوابي وامر شيندي المهندس ببناء ابراج التلغراف[1] من الاسكندرية الى دمياط لارسال الاخبار وصارت السفن تخرج للاستطلاع كل يوم فقلق اهالي الاسكندرية وصاروا يتوقعون ابتداء القتال كل يوم ولكن

(١) يراد بابراج التلغراف هنا الابراج التي كانت تبنى وتنقل الاخبار بها من برج الى آخر بواسطة النيران او الاعلام

لم تمضِ ثمانية ايام حتى ثبت ان السلطان غير ناوٍ شيئاً مما قالهُ الباشا وان غرض الباشا من ذلك اقناع السلطان انهُ على تمام الاهبة لمقاومتهِ

وكتب الى لورد بردو في ١٠ فبراير سنة ١٨٣١ يقول: "أُنزلت بارجة من بوارج الباشا الكبرى في ٣ يناير فشمل السرور جميع الناس وكان الباشا في مصر فأُرسل خبر نزولها اليهِ بالتلغراف واسم هذه البارجة محمد علي ومحمولها ١١٠ مدافع وهي مصفحة بالنحاس. وعندهُ بارجتان مثلها اسمهما ابرهيم والاسكندرية وبارجة اخرى محمولها ٨٠ مدفعاً وسيشرع في بناء بارجة محمولها ١٣٦ مدفعاً وستكون اكبر بوارج الدنيا اي انها تكون اكبر من بارجة تبني الآن في الاستانة بنحو قدم او قدمين. وقد تم انشاء الترسانة وجُلب اليها الماء من المحمودية وانشئت الشون الكبيرة لوضع الحبوب والبضائع

لما اتيت الى مصر سنة ١٨٢٦ كنت اسمع كل احد يقول ان الباشا لا يستطيع ان يبقى ستة اشهر اخرى ما لم يجرَّ الخراب على نفسهِ لانهُ شارع في اعمال كبيرة لا يستطيعها لقلة المال لديهِ ولا بدَّ لهُ من ان يتركها ولكنهُ اتمها وعمل اعمالاً اخرى اعظم منها اضعافاً مضاعفة. والحقيقة اننا لا نعلم مقدرتهُ المالية ولا بدَّ من انها كافية لكل الاعمال التي باشرها. وفي اليوم التالي لانزال البارجة محمد علي أُنزل الى البحر كورفت جميل محمولهُ ٢٦ مدفعاً يراد ارسالهُ هدية الى السلطان

وكتب في ١٦ مارس سنة ١٨٣١ يقول: "وضع الخشب لبناء البارجة الكبيرة التي محمولها ١٣٦ مدفعاً وطول جسر قاعدتها مئتا قدم وعرض ضهرها نحو ستين قدماً. وقد بلغ قطن الباشا هذا العام ١٥٠ الف بالة ففاق محصول الاعوام السالفة وعندهُ زراعة واسعة من الخشخاش لاستخراج الافيون وهي على غاية النمو. والمقدار القليل من الافيون الذي استخرجهُ في العام الماضي كان جيداً جداً. وقد نجحت زراعة شجر التوت ايضاً لتربية دود الحرير ولا بدَّ من ان تصير مصر من البلدان التي تصدر الحرير. ولا يزال الايطاليون يديرون معامل السكر والروم. والمدبغة في رشيد تدبغ من الجلود ما يكفي احذية الجنود والبحَّارة كلهم اي قدر ما يصنع للجنود الانكليزية"

وانتشرت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ ومات بها ٣٠٠٠ من الجنود ونحو ٩٠٠ من البحارة وكان اخو المستر بركر وكيلاً لهُ في القاهرة فهرب الى دمياط وكتب اليهِ المستر بركر من الاسكندرية في ١١ سبتمبر يقول دلَّ التلغراف اليوم على ان عدد الوفيات في القاهرة كان امس ٤٩ اما هنا فالتقرير الرسمي عن وفيات الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر من الشهر هو

٤٤و٥٦ و٣٨ و٤٠ وقد ثبتت لي الآن ان الكوليرا تعدي باللمس وان الفصد علاج لها. ونصيحتي لك ان تعتني بامر معدتك وامعائك واذا أُصبت ان تفصد حالاً ولا شبهة عندي ان ابنتي نجت بذلك من الموت

وكتب اليهِ قبل ذلك في ٥ اوغسطس يقول: ان الباشا بقي حتى اليوم ينكر فائدة الكورنتينا للوقاية من الكوليرا ولكن لما رأى فتكها بجنودهِ لجأ الى قناصل الدول ليختاروا خمسة منهم يؤلفون لجنة لمنع انتشار الكوليرا وقد جعلوني رئيساً لهذه اللجنة رغماً عني لا سيما واني واثق انهُ لا فائدة من الوسائل التي ستتخذها لذلك

ونجحت كريت في حكم محمد علي فحدثتهُ نفسهُ ان يستولي على سورية ويفعل فيها مافعلهُ في كريت وكتب المستر باركر حينئذٍ الى المستر ابوت قنصل انكلترا في بيروت في ٢ يونيو سنة ١٨٣١ يقول: "لم تبقَ شبهة في ان الباشا قاصد حصار عكاء"

وفي خريف تلك السنة شاع في مصر ان محمد علي يقصد الاستيلاء على سورية وتحدث الناس بهذا الامر خاصتهم وعامتهم وامر ابرهيم باشا بعمل زينة في مصر مدعياً انهُ جاء اياداً فرمان ولاية عكاء من الاستانة والحقيقة ان محمد علي عرض على السلطان مالاً طائلاً لولايةٍ سورية فلم يجب طلبهُ ثم ادَّعى ان عبدالله باشا والي عكاء اهانهُ فبعث جنودهُ لتأديبهِ وكتب المستر باركر في الرابع من فبراير سنة ١٨٣٢ يقول:

لا بدَّ لمحمد علي من فتح عكاء والاَّ دارت الدائرة عليهِ وقد مضى عليهِ الآن ثلاثة اشهر وجنودهُ حاصرة تلك المدينة ولا دليل على انهُ سيتمكَّن من فتحها قريباً ولقد عرض على الباب العالي مئة الف كيس جزية اذا اعطاهُ ايالة عكاء ودمشق. اما سفنهُ الحربيَّة فقد تعطلت ولا يمكن اصلاحها في اقل من اربعة اشهر او خمسة". ثم ذكر جامع الكتاب ان عكاء فتحت في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ بعد ان مات كثيرون من الجنود المصرية بسبب البرد وسار ابرهيم باشا على دمشق بثلاثين الف مقاتل ففتحت ابوابها لهُ وارتدَّ محمد باشا بالجنود العثمانية الى حمص فتبعهُ ابرهيم باشا الى هناك واوقع بهِ وقتل الفين من الجنود العثمانية واسر ثلاثة آلاف ويقال ان عدد الجنود العثمانية كان ٣٥ الفاً وقتل من جنود ابرهيم باشا مئتان وجُرح مئتان. ولما بلغ المدائن السورية خبر انكسار الجنود العثمانية تسابقت الى فتح ابوابها لابرهيم باشا فاقرَّ والي حلب ابرهيم بك بابلسي في ولايتهِ وفتح انطاكية باحد عشر رجلاً

ثم فصَّل جامع الكتاب حروب ابرهيم باشا في بلاد الشام وما يليها ممَّا لا غرض لنا باستيفائهِ الآن وكان المستر باركر لم يرضِ دولتهُ حينئذٍ فاحالهُ اللورد بامرستون على المعاش في ٥

فبراير سنة ١٨٣٣ وعين بدلاً منهُ الكولونل باترك كمبل قنصلاً جنرالاً في مصر . وعاد المستر باركر الى السويدية وهي على اربع ساعات من انطاكية وكان قد بنى داراً بديعة فيها وغرس حولها جنة غناء ونزل ابرهيم باشا في هذه الدار لما دخل انطاكية وكتب اليهِ في ١٢ اغسطس سنة ١٨٣٢ يقول انهُ بات فيها واكل من اثمارها الشهيَّة وفضَّل السويدية على جنان الدنيا بعد دمشق

وفي مكاتيب المستر باركر التالية اشارات كثيرة الى ما فعلهُ ابرهيم باشا في بلاد الشام وسنأتي على خلاصتها في جزء تالٍ

نبأ من اليابان

لا يختلف اثنان في ان اليابان صارت تعدُّ في مصاف الدول الاوربيَّة الكبرى مثل فرنسا وانكلترا والمانيا وروسيا من حيث جنديتها وبحريتها وانتظام حكومتها واهتمام شعبها بالصناعة والتجارة. وهذا الشأو لم تبلغهُ دولة اخرى شرقية ولا بلغتهُ الدول الغربية الاَّ بشق الانفس وبعد مئات من السنين فهي المثال الذي نضربهُ للوكنا وحكامنا ورجالنا عموماً حينما نحثهم على الجري في خطَّة الاوربيين والقدوة التي يجب ان نقتدي بها اذا اردنا الفوز العاجل . ولقد كنا نودُّ ان نمضي الى تلك البلاد ونبحث عن اسباب ارتقائها فوقع لنا بالامس كتاب ان لم يغنِ عن الرحلة فهو خير ما نتعلل بها الى ان يقيِّضها لنا الله كتبهُ المستر الفرد ستد بن المستر وليم ستد محرر مجلة المجلات الانكليزية بعد ان طاف في تلك البلاد والتقى جلَّة رجالها وباحثهم في احوال بلادهم . وقد شهد لهُ الوزير ايتو الياباني الشهير انهُ نطق بالصدق وتحرَّر الحقائق لم يظرئ اليابانيين ولا بخسهم حقهم فرأينا ان نعتمد عليهِ في تقرير بعض الحقائق التالية وقدمنا لذلك مقدمة مسهبة ممَّا نشرناهُ في المقتطف في بعض السنين الماضية يتبيَّن منها تاريخ اليابان الى ان دخلت دور العمران الجديد

المقدمة

ما من شرقيّ انعم نظرهُ في تاريخ المشرق ورأى ما آلت اليهِ حال ممالكهِ بعد اتصالها بالاوربيين بها او جال في ممالك اوربَّا ورأى اركان عمرانها وانبساط ظل الراحة والرفاهة في ارجائها الاَّ تمنى ان ينهض الشرقيون كلهم الى مجاراة الاوربيين في فضائل عمرانهم ومسابقتهم الى كل ما يُحمَد منهُ ليعود اليهم سالف مجدهم ويجاروا امم المغرب في نهضتهم الحديثة وقد